بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إذا كان التوسع فى جمع المعلومات والبيانات فى هذه الظروف العالمية التى تتصارع فيها الدول جميعها على أكبر قدر من المعلومات وتصنيفها ودراستها هو مطلب أساسى وضرورى فى مجال التنافس الحضارى والذى ظهر بوضوح فى النصف الثانى من القرن العشرين وحتى الآن «الكومبيوتر وغيره» فإن التوسع فى جمع نصوص الأمثال التى يرددها الناس فى حلهم وترحالهم ومنذ أن يصحو الانسان صباحا وحتى تأوى إلى فراشة أصبح ضرورة ومطلب حيوى حيث أن هذه النصوص هى خطوة البداية أمام الدارس الذى يريد أن يقف على الأبعاد والتيارات الثقافية التى يتحرك من خلالها الناس فرديا وجماعيا. وهذه النصوص هى إحدى أهم عناصر الثقافة الشعبية التى تدخل فى دولاب الحياة اليومية.

علاقتى بالأمثال:

تمتد علاقتى بهذه الأمثال إلى عشرات السنين، وكانت البداية عندما تقابلت مع الأستاذ فوزى العنتيل - عليه رحمة الله - وكان صديقا عزيزا ويعمل فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والأداب فى ستينات القرن العشرين- المجلس الاعلى للثقافة حاليا- وكان هذا الصديق له اهتمامات بالدراسات الشعبية وحصل على درجة الماجستير فى الشعبيات من ايرلندا- وطلبت منه أن يقترح موضوعا أقوم باعداده لدرجة الماجستير وكان ذلك على الرصيف بجانب سور مجلس الشعب فى شارع قصر العينى الساعة الحادية عشر صباحا فاقترح على أن أقوم بجمع نصوص الأمثال الشعبية من الميدان وخاصة من الريف والتعليق عليها كموضوع للرسالة، وكان ذلك عام ١٩٦٤م وكانت هذه الفكرة هى الخيط الذى أدخلنى إلى عالم هذه النصوص. وبعد هذا العمر الطويل الممتد من ١٩٦٤- حتى الآن- ٢٠٠٢م فإننى

رغم حصولى على درجة الدكتوراه فى النوادر الشعبية- مازالت أعيش عالم هذه النصوص وحتى عندما ذهبت إلى الجزائر استاذا فى جامعة الجزائر العاصمة ثم جامعة قسنطينه فى الشرق الجزائرى فى الفترة من ١٩٧٦- ١٩٨٧ فإن هذه النصوص لم تبتعد عن فكرى، وفى فتره وجودى فى الجزائر جمعت آلاف من الأمثال الجزائرية لم تر النور حتى الآن باستثناء بحث نشرته فى مجلة الفنون الشعبية التى تصدر عن هيئة الكتاب.

وعالم الأمثال الشعبية يتميز باللذة والطرافة وقد وضع هذا العالم أمامى- وأنا المصرى ابن مدينة زفتى التى تتوسط الوجه البحرى - مجموعة من العناصر الفكرية الحاكمة فى سلوك المجتمع واستطيع أن أقول - دون مبالغة - إن هذه النصوص هى إحدى أهم العناصر الثقافية الكاشفة للتيارات الخفية التى يتحرك المجتمع من خلالها، وهى تيارات تربط بين الماضى والحاضر فى تواصل عميق مع الزمن وسوف نشير إلى ذلك فى سطور تاليه.

جمع الأمثال:

إن عملية جمع هذه النصوص من أصعب الأمور بل تكاد تكون أقرب إلى الاستحالة ذلك أن هذه النصوص ليست فى الكتب أو فى مكان معين ويمكن للباحث الحصول عليها، ولكنها نصوص طائرة ومتناثرة بين الناس فى كافة الأنحاء وتاتى عفو الخاطر وليست قابلة للاستدعاء، وهى نصوص تجرى ضمن إيقاع الحياة اليومية. بل إن الشخص الذى يتمتع بموهبة استخدام النصوص المثلية لا يستطيع فى وقت معين أو عند الحاجة أن يستدعى أكثر من عدة أمثال لا تزيد على أصابع اليد الواحدة وذلك فى أحسن الأحوال.

فهذه النصوص ترتبط بالمناسبات ويأتى المثل عفو الخاطر، ولذلك فإن من الصعوبة بمكان أن نستحضر آلاف المناسبات المتناقضة فى وقت واحد لكى تجمع أمثالها كما أن مصدر هذه النصوص هم ملايين الناس الذين يتوزعون على منطقة جغرافية واسعة ويمارسون أعمالا مختلفة، وهم على مستويات إجتماعية مختلفة فهناك المثقفون وانصاف المثقفين والأميين والنساء والكبار والصغار، وهناك العديد

من المهن التى يمارسها أفراد المجتمع وهناك العديد من الظروف.. إلخ. فهل يمكن جمع هذه العناصر مجتمعة لاستخلاص هذه النصوص وتسجيلها؟!

إن مصادر البحث العلمى التقليدى هى الكتب أو المسجلات والوثائق والمشاهد المباشرة بينما نجد أن نصوص الأمثال عبارة عن جمل صغيرة طائرة يستخدمها كافة طبقات المجتمع وعلى كل المستويات وهو ما يعطيها أبعادا كثيرة قد تكون متعارضة أو متضاربة، وقد يكون سلبية وغير معقولة عند النظرة السطحية: «السجن للجدعان». ومما يزيد الأمر صعوبة أن المصريين قد يستخدمون فى هذه النصوص أساليب الرمز والتورية والإسقاط تبعا للظروف الإجتماعية، وقد يكون ذلك على سبيل الخوف والتقية أو رغبة فى التباسط أو على سبيل التعميم. «اللى اختشوا ماتوا» وتدور حول هذا المثل قصة، كما استخدم هذا المثل فى مناسبات كثيرة كالسياسة والمعاملات اليومية وفى الصحافة وفى كثير من المناسبات لأنه ـ أى المثل- يرتبط بشخص كالح لا يهتم بالقيم أو الإعتبارات الإجتماعية أو هو شخص مستهتر.

ولذلك فإن هذه الأمثال عبارة عن مجموعة من الضوابط الأخلاقية والسلوكية والآداب الإجتماعية، وهى أيضا عبارة عن نمط من الحوار بين المرسل والمستقبل ويحاول المثل أن يربط بينهما. اي بين قناعة المرسل وإتجاهاته الفكرية وبين المستقبل الذى لديه إتجاهات فكرية قد تكون مغايرة أو مناقصةأو مختلفة، ولاشك أن رد الفعل عند المستقبل يختلف من واحد إلى آخر. فقد يكون رد الفعل «ودن من طين وودن من عجين» إذا كان هناك تباعد فكرى بين الإثنين والعكس صحيح إذا كانت النصيحة المثلية لوجه الله وبعيدة عن الغرض والهوى وهنا يكون التواصل ومن ثم يظهر الدور الوظيفى للمثل وهو ما يعطى مؤشرا واضحا للدارسين وعلماء الإجتماع.

إن نصوص الامثال لا تحمل إشارات عابرة مثل سحابة الدخان التى تتبدد سريعا ولكنها تحمل أفكارا ومعتقدات وتوجيهات قد تمتد إلى آلاف السنين، فالمثل الذى يقول «لسانك حصانك إن صنته صانك وإن هنته هانك» يمتد إلى عصر الفراعنة حيث يقول «إن الإنسان يبنى ويهدم بلسانه».

إن الإشارة العابرة لا تنهض كدليل صادق على فكر معين، ومن ثم فقد يقال

إن المثل عبارة عن إشارة عابرة ومن ثم لا ينهض كدليل على طبيعة المجتمع، فقد تكون هذه الإشارة تعبيرا عن نوبة غضب أو موافقه أو شعور عشوائى أو نشوة فرح مما يتعلق بالظروف والمناسبة، ولما كانت الجملة المثلية تأتى عفو الخاطر وتنطلق مع المناسبة الظرفية فإن النص المثلى لا يعبر عن طبيعة الجميع أولا ينهض كدليل صادق على طبيعة المجتمع.

وردنا على ذلك أن النص المثلى بمفرده لا ينهض كدليل على طبيعة المجتمع بمعنى أن النص المثلى ليس قاعدة يمكن تعميمها على المجتمع وتوجهاته ولكنه كنص مفرد عبارة عن رؤية أو قناعة فردية فى وقت معين ولأسباب خاصة.

فالمثل الذى يقول «المعارف مآرف» هل يمكن أن يمثل قاعدة سلوكية يمكن تعميمها بمعنى أن المعارف ليس وارءهم إلا السوء؟ ولكننا إذا نظرنا إلى المناسبة الفردية أو العلاقة القائمة بين المرسل والمستقبل فيمكن أن يكون مقبولا. فالمثل هنا يعبر عن موقف شخصى وبناء على سلوك غير مقبول من الطرف الآخر وهو أحد «المعارف» مما دفع القائل إلى استرجاع المخزون الثقافى للتعبير عن الضيق من خلال هذا المثل.

والمثل الذى يقول «السجن للجدعان» لا ينهض كقاعدة عامة على السلوك الإجتماعى بل لا ينهض كقاعدة للسلوك البشرى فى أى مكان على سطح الأرض وإلا تحول البشر إلى مجرمين ولصوص وهو ما يؤدى إلى فناء البشرية ولكن إذا ربطنا هذا المثل بالظرف الذى قيل فيه فإننا يمكن أن نقبله. وهذا المثل يحمل ثلاثة مستويات:

المستوى الأول: وهو الذى يعطى انطباعا سريعا فيعبر عن اللصوص والمجرمين الذين اعتادوا على حياة المسجون حتى أصبحت مألوفة لديهم.

المستوى الثانى: هو أنه قد يعبر عن الثأر للكرامة التى أهينت وضرورة الإنتقام من القاتل أو الذى اقترف الفضيحة فإن السجن هنا ضرب من الإعتزاز بالدفاع عن الشرف والكرامة.

المستوى الثالث: فإذا رجعنا إلى عام ١٩٥١ أيام الإستعمار البريطانى وإندفاع الفدائيين لقتل جنود الإستعمار وهنا فإن السجن يعبر عن روح وطنية. وقد عايش كاتب السطور هذه الفترة، وكنا يحس بالعزة والفخر عندما «نموت فداء للوطن».

أما المثل الذى يقول: «الأقارب عقارب» فإنه لا يسرى على المجتمع ككل ولكنه يعبر عن موقف طارئ «ولكل حادث حديث» وإلا ما كانت هناك أسر وعائلات تمثل عنصرا أساسيا فى البناء الأجتماعى المصرى، ولما كانت هناك عصبية كما يظهر فى الصعيد والمثل الذى يقول «التار ولا العار».

وقد نتساءل: إذا كانت هذه النصوص المثلية السلبية ترتبط بموقف متغير فلماذا استقرت داخل الثقافة الشعبية واصبحت تنتقل من جيل إلى آخر واستقرت داخل اللاشعور بحيث يكمن استعادتها من المخزون الثقافى بين الحين والآخر؟

نقول إن هذه الأمثال موجودة فى أى مجتمع دون استثناء لأنها ترتبط بالسلوكيات السلبية وهى موجودة مع الإنسان فى أى مكان وهناك دائما صراع بين الخير والشر وبين الحسن والسئ، وهناك ثنائيات تعبر عن الصراع بين الأطراف المتناقضة والمتضاربة ولا يوجد بين البشر ذلك المجتمع الملائكى. فهذه النصوص تطفو على السطح للتعبير عن الظرف الطارئ ثم تعود إلى الكمون فى المخزون الثقافى.

وبالنسبة للمجتمع المصرى ذلك المجتمع التقليدى الذى لم يخضع طوال تاريخه إلى تحولات درامية قاسية أو تحولات فجائية باستثناء صور الحكم والشكاله فإن هذه النصوص تعبر عن مشاعر وقتية ثم تبقى تلك الأمثال ذات الطبيعة الحضارية فنجد المثل الفرعونى يقول: «المستقبل لا يهيؤه أحد لنفسه لأنه بيد الرب» ونحن نردد الآن (٢٠٠٢م) وعلى كل المستويات فى الريف والحضر وبين الأميين والمتعلمين والمثقفين والساسيين نقول: «المستقبل بيد الله».

وفى هذا المجال الخاص بالرؤى المختلفة أو الحيرة ازاء معرفة المغزى المثلى فقد جاء فى بريد الأهرام ٢٦/ ٥/ ٢٠٠٠ فى الصفحة الدينية تحت باب اسألوا الفقيه بعنوان شرعية الأمثال تقول الرسالة: بعث السائل يقول: ما شرعية هذا المثل الشعبى الشائع الذى يقول: «اللى يعوزه بيتك يحرم على الجامع» هل هذا المثل صحيح من الناحية الشرعية حيث أن كثير من الناس يعملون به ويحجمون عن الإنفاق على الفقراء والمحتاجين. ما رأى الدين فى ذلك؟

نقول للسائل أن المثل الشعبى يحث على أن الأمور المالية إذا ضاقت على الإنسان وأصبح لا يملك قوت وقته لنفسه ومن يعولهم فليقدم نفسه ومن يعولهم على الغير بشرط ألا يكون شحيحا وألا يتهالك على الدنيا... إلخ.

ومما لا شك فيه أن النظرة إلى هذه الأمثال ينبغى أن تكون فى إطار مفاهيم تربط بين سياقها التاريخى والجغرافى والإجتماعى والسياسى ذلك أن الإطار هو الذى يفسر الرمز أو المجاز أو الألغاز أو الغوامض والسياق هو الذى يكشف الغموض. أما خطورة التعميم فأنها تظهر إذا نظرنا إلى المثل وهو عبارة عن بضع كلمات أو جملة واحدة وعممنا ما يتضمنه علي الجماعة، فالتعميم هنا مضلل ولا يقود إلى الحقيقة بل يثير كثافة من الغبار الفكرى، ومن ثم يميل الحكم إلى التسطيح الذى يؤدى إلى تضليل الرأى العام.

ولا شك فى استمرارية هذه النصوص عبر الأجيال والتى يمتد إلى آلاف السنين حيث يقول المثل الحديث: «أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد» ويمتد هذا المثل فى التاريخ إلى عهد الفراعنة حيث يقولون: «الإنسان يريد والله يفعل ما يريد» وأيضا المثل الحديث الذى يقول «لسانك حصانك إن صنته صانك وإن هنته هانك» فإنه ممتد عبر السنين حتى عهد الفراعنة حيث يقول المثل الفرعونى: «إن الإنسان يبنى ويهدم بلسانه».

وهنا من حق القارئ أن يتساءل فيقول. هل هذه النصوص الممتدة عبر آلاف السنين تعبر عن الجمود أو الترهل الفكرى الذى توقف عن التطور مع إيقاع الحياة الذى يتغير دون توقف؟

نقول فى ردنا على ذلك: إن التغيير هو سنة الله فى خلقه وإن هذه النصوص التى تسرى ضمن التفاعلات اليومية بين الناس إنما هى كالعملة فهى قابلة للتغيير والتطوير وهناك الكثير من نصوص الأمثال التى تسقط لعدم الحاجة إليها وتختفى وهناك الجديد الذى يأتى ليلبى ظروف إيقاع الحياة المتجددة. وهل هناك تناقض بين قولنا إن هذه النصوص الموروثة تعبر عن إتجاهات فكرية حاكمة وبين قولنا أن هذه النصوص الطائرة قابلة للتغيير والتطوير؟

الواقع أنه لا تناقض بين هذا وذاك. ففى الوقت الذى نجد أن هذه النصوص تأتى عبر الأجيال وضمن الموروثات نجد أن هذه النصوص فى حركة دائمة ومتغيرة، بمعنى إن النص قد يحمل أفكار وآراء معاصرة تتولد مع إيقاع الحياة اليومية وفى هذه الأيام نجد أن كرة القدم تسيطر على اهتمامات الناس على كافة المستويات

ولا يقتصر الإهتمام بها على مرحلة الشباب، ومن ثم شاع أخيرا التعبير الذى قد يتحول إلى مثل إذا امتد العمر إلى عشرات السنين القادمة فيقال: «الكورة إجوان والشاطر اللى يحط جون».

وفى هذه الأيام سيطر فن التمثيل- من المثل- على اهتمامات الناس باعتباره وسلية ترفيهية تخفف من ضغوط الحياة حيث يقول الرسول: «روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلت عميت» وأخيرا شاع التعبير الذى قد يتحول إلى مثل فيقول: «الفن مافيهوش وسائط» ذلك أن الفن موهبة مصقولة بمعنى أن الموهبة هى التى تفرض نفسها ومن ثم لا تجدى الوساطة كما أن المجتمع والرأى العام هو صاحب الحكم على الفنان من حيث القبول أو الرفض

ومما لا شك فيه أن هذه النصوص تلعب دورا كبيرا وخاصة بالنسبة للمجتمع المصرى ـ صاحب النزعة التقليدية وصاحب التاريخ الممتد عبر آلاف السنين ـ ولا شك أيضا أن الحاضر يتكون فى رحم الماضى والمستقبل يتشكل فى إيقاع الحاضر، ويمكن تفسير ذلك من خلال تجميع النصوص المثلية وتصنيفها إلى رءوس موضوعات ثم إلى جزيئات فكرية صغيرة. إن هذا العمل يمكن أن يقدم تفسيرا لإيقاع الحاضر ومؤشرا على احتمالات المستقبل بصرف النظر عن الجوانب المادية. فالمستقبل يتولد فى رحم الحاضر وخاصة فى مجال القيم الإنسانية العامة التى جاءت بها الأديان السماوية وأيضا التفاعلات اليومية ونمط المعاملات.

إن النص المثلى يعتمد فى بقائه على الحاجة الإجتماعية والجوانب الروحية التى تعيشها البشرية منذ بداية الخليقة حتى اليوم. كما أن التطور المادى الذى يتغير سريعا لا يستطيع أن يغير القيم الإنسانية العليا أو السلوك البشرى، ولذلك فإن العلاقات الإجتماعية القائمة على العادات والتقاليد والقيم الدينية لا يمكن أن تكون قابلة للتغير الفجائى أو بين الحين والآخر.

الأمثال والإنسان المصرى

إذا كان الدكتور جمال حمدان فى كتابه الموسوعى «شخصية مصر» قد تحدث عن عبقرية المكان بمعنى أن المكان هو سبب أول سلبا وإيجابا فى تكوين شخصية

الإنسان فإننى أرى إن الإنسان هو السبب الأول فى بناء الحضارة ذلك أن عقل الإنسان الذى ميزه الله به عن سائر الكائنات هو الذى يتحكم فيما حوله من مكان وأن الإنسان هو صانع الحضارة، ولو كان المكان هو العبقرى لظل هذا المكان هو الذى يسيطر على الكرة الأرضية إلى ما شاء الله ومن ثم تتوطن الريادة والحضارة فى مكان دون آخر ولكن الحضارة هى وليد حركة الإنسان، وقد فطن المثل الشعبى المصرى إلى هذه الحقيقة وسجلها فى نص يضارع أرقى الأفكار الثقافية وما ردده أبرز السياسيين والعلماء. فيقول المثل الذى يردده الحداد الأمى «كف لحم ولا كف فحم» بمعنى أن كف اليد يصنع المادة الخام ويحولها إلى وسيلة لصنع الحضارة وليس كف الفحم الذى يوضع فى الكيرلتسييل الحديد هو الذى يشكلها. فالإنسان هو اثمن ما يوجد على سطح الأرض ولدينا المثل الآخر الذى يقول على لسان النجار ذلك الحرفى البسيط الذى طلب من الصبى أن يقطع قطعة الخشب على قدر معين وأسرع الصبى إلى شق قطعة الخشب دون أن يقيس بدقة فافسدها فما كان من الأسطى إلا أن ضرب الصبى يكفه وهو يقول له هذا المثل: «ستين مقاس ولا قطعية منشار» بمعنى أنه من صالح العمل المقاس ستين مرة ـ قبل نشر قطعة الخشب حتى لا يخسرها.

ويذكرنا هذا بما جاء فى أهرام ٣/ ١٠/ ١٩٩٨ فى حوار مع اللواء فؤاد نصار رئيس جهاز المخابرات فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ حيث قال:

لقد سألوا موسى ديان «وزير الدفاع الإسرائيلى فى حرب ١٩٧٣» بعد انتهاء الحرب. فكيف استطاعت مصر الحصول على كل هذا الكم من المعلومات رغم أنها لا تملك وسائل إستطلاع حديثة ومتقدمة ولا تملك أيضا طائرات استطلاع بعيدة المدى ولا تمدهم أى جهة من الجهات بمعلومات وصور من الأقمار الصناعية؟

فأجاب: بأن مصر استخدمت العنصر البشرى وملأت سيناء برادارات بشرية لها عقول وليس برادارات صماء فكانت هى الأفضل من كل هذه الأجهزة الحديثة»

إن الأمثال تجارب بشرية مختزنة تبقى فى اللاشعور لتربط بين الماضى والحاضر

والمستقبل أيضا بمعنى أنها تقوم بعملية التواصل الطبيعى بين الأجيال والذى يحمي من الإندفاع إلى المجهول أو الجمود مع الماضى وتحويله إلى أصنام ندور حولها فى بلاهه وعدم وعى.

ولا شك أن مجرد استدعاء النص المثلى يعنى أن دوره لم ينته بعد وأنه يمثل ثقافة متواصلة تلقى ضوءا كاشفا على مكونات المجتمع المصرى بمفرداته التى اعتقد أنها خمس مكونات كبرى هى:

١- **الأسرة**: وامتدادها هو المجتمع بعاداته وتقاليده وأنماط تفكيره وفلسفته الحياتية

٢- **المعتقد الدينى**: وهو عنصر يلعب أخطر الأدوار فى حياة المصرين.

٣- **الحاكم**: بما يملكه من سطوة وسلطان، وقد كان الحاكم دوما ومنذ الأسرة عشرين وبداية الحيثيين حتى ١٩٥٢م كان هذا الحاكم أجنبيا ويهتم بالسيطرة والحرص على إبعاد المصريين عن الإقتراب من دفة الحكم وقد أعتمد الحاكم على ذلك بتكوين بيروقراطية تقف عقبة فى سبيل الإقتراب وقد عرف المصريون بهذه السطوة فعبروا عنها فى أمثالهم فيقولون: المنصب روح ولوفى المسكة [الروث] وكان من نتائج ذلك تسيد الفردية على شئون الدولة وجنوحها إلى الإستبداد بالقرار ومن ثم كان هناك نزوع وتحايل على الأقتراب من السلطة صاحبة القرار وهذه الظاهرة مازالت منتشرة بوضوح فى السلك الإدارى ومن ثم وجدنا المثل: «إن فاتك الميرى إتمرغ فى ترابه».

٤- **الزمان**: ويتمثل فى التاريخ حامل تراث الآدباء والأجداد بما فيه من عادات وتقاليد وأنماط سلوكية، وقد سجل المثل الحديث النص الفرعونى ومازال يتردد حتى هذه الأيام وقد أشرنا إلى ذلك فى سطور سابقة.

٥- **المكان**: وهذا المكان فى الحياة المصرية ينحصر فى مساحة ضيقة جدا على ضعاف النيل الذى يشق الصحراء من الجنوب إلى الشمال وحاليا يبلغ عدد سكان مصر (٢٠٠١م) حوالى أكثر من سبعة وستين مليونا يعيشون على حوالى ٣٠ ألف كيلو متر مربع أى فى حوالى ٥٪ من مساحة مصر، وتمثل الكتل والكثافة السكانية

فى مصر أكثر كثافة سكانية على المستوي العالمى وما يدور بين الناس فى الإسكندرية ـ شمال مصر ـ يسمعه أبناء أسوان فى الجنوب.

وقد نشرت دار الهلال كتاب بعنوان «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية» بقلم دكتور ميلاد حنا وحدد هذه الأعمدة فيما يأتى:

العامود الأول: الإنتماء الفرعونى

العمود الثانى: العصر اليونانى الرومانى

العمود الثالث: العصر القبطى

العمود الرابع: العصر الإسلامى

العمود الخامس: إنتماء مصر العربى

العمود السادس: إنتماء مصر للبحر المتوسط

العمود السابع: إنتماء مصر لأفريقيا

وقد كان هذا الكاتب ذكيا فى إدخال الإنتماءات الأربعة الأولى تحت عنوان إنتماءات تاريخية والإنتماءات الثلاثة التالية فهى إنتماءات بحكم المكان، وفى آخر سطور الكتاب يقول المؤلف: «إن فن الحياة هو فن التعامل مع هذه الباقة من الإنتماءات»[1].

وهكذا حصر المؤلف الشخصية المصرية فى الزمان والمكان على الرغم من أن العناصر الثلاثة السابقة التى أشرت إليها تلعب أخطر الأدوار فى التأثير على الشخصية المصرية وعدها الأجانب مدخلا لدراسة الشخصية المصرية، وقد أشرت إلى ذلك فى مقدمة الجزء الأول من هذه الموسوعة من خلال الحوار الذى دار بين السيد/ أحمد أبو الفتح الصحفى وصاحب دار جريدة المصرى التى كانت تصدر حتى قيام ثورة ١٩٥٢م، وقد دار هذا الحوار بين أحمد أبو الفتح وشخص يشغل مركزا فى وزارة الخادجية الأمريكية، وكان ذلك بتاريخ ١٩٥٠م وهو ما يعنى أن هذه النصوص المثلية من أهم المداخل لدراسة الشخصية المصرية ذات الأبعاد التاريخية الضاربة فى القدم.

(١) الأعمدة السبعة للشخصية المصرية/ دكتور ميلاد حنا / طبع دار الهلال/ طبعة ثالثة ١٩٩٣م.

✍ الأمثال والسياسة

أن دور هذه النصوص لا يقتصر على التعبير عما يدور فى باطن العلاقات الإجتماعية اليومية على كافة المستويات الشعبية ولا تقتصر على مستويات معينه. فهى تنتشر وتؤثر على كافة المستويات دون إستثناء لأنها محفوظ ثقافى يعبر عن تفاعل الماضى مع الحاضر والمستقبل فهى تجرى على ألسنة الناس على كافة المستويات.

فقد قال رئيس الجمهورية الرئيس حسنى مبارك «رأس المال جبان» فى حديث له له وذلك ردا على سؤال المذيع التلفزيونى صلاح الدين مصطفى وكان ذلك عام ١٩٩٩م وقد قال هذا النص ضمن الحديث أثناء زيارته لأمريكا وقد سجل الحديث للرئيس مبارك وقبل مغادرته أمريكا إلى مصر وكان ذلك فى مجال الحديث عن ضرورة الاستقرار والأمن. وترديد هذه الأمثال على مستوى صانع القرار إنما يعنى أنها تؤثر على الرأى العام وعلي الملايين وهو ما يشير إلى خطورة هذا النص الذى أرسله الرئيس تلقائيا، وأيضا ما ردده فى بداية ولايته وقوله «الكفن مالوش جيوب» وفى هذا المجال نشير إلى ما جاء فى أهرام ١٤/ ٥/ ١٩٩٩ على لسان وزير الإسكان دكتور محمد إبراهيم سليمان وقوله: «اللى ماعندوش ما يلزموش» كتعبير عن عدم مراعاة البعد الأجتماعى فى الإسكان ونفى أن تكون سياسة الوزارة تسير على هذا الإتجاه ولكنه من ناحية أخرى فقد أشار إلى أن القادرين أسهموا :بـ ١,٤ مليار جنية لدعم الإسكان لغير القادرين من الشباب

وفى هذا السياق أيضا فقد أوردت جريدة الوفد فى ٢٦/ ٢/ ٢٠٠٢ تحقيقان فى صفحة واحدة أحدهما على لسان مسئول كبير وهو الدكتور أحمد جويلى وزير

التموين والتجارة السابق ومسئول اقتصادى كبير فى الجامعة العربية حاليا يقول فى تحقيق بعنوان «اللعب مع الفساد» عن أبناء المسئولين السابقين الذين يستغلون سلطات الآباء يقول «ابنك على ما تربيه»، وأكد الدكتور جويلى أن الآباء مسئولون عن تصرفات أبنائهم خلال تنشئتهم وتربيتهم ولا يختلف فى ذلك ابن الوزير أو أى أب عادى بلا سلطة ولا موقع مسئولية.. فالوزير وظيفة ليست دائمة». وفى نفس الصفحة وفى تحقيق بقلم «حنان عثمان» تحت عنوان «الظروف الإقتصادية قطعت خط التواصل بين المصريين ـ المقاطعة الإجتماعية» كتبت تقول «.... الجيران أصبحوا يعشون فى جزر منعزلة قليل منهم يلقى السلام على الآخرين والبعض يكاد لا يتعرف على جاره فى نفس الدور.. الجميع يرفع شعار «صباح الخير يا جارى إنت فى حالك وأنا فى حالى» إما إيثارا للسلامة أو إمعانا فى تطبيق مبدأ البعد عن الجميع والمقاطعة الإجتماعية.

وعلى المستوى العام أيضا فقد جاء فى جريدة الوفد ١٩٩٩/٨/٥ ضمن مقال بقلم أحمد أبو الفتح يقول إن طول فترات التقاضى يؤدى إلى تبديد الحقوق ويقابله المثل «المحاكم حبالها طويلة».

تعريف المثل

من يتابع القواميس اللغوية سوف يجد أن كلمة «مثل» لها اشتقاقات عديدة وهنا نقتصر على كلمة «مثل» فى قاموس المحيط:

فكلمة «مثل» بالفتح: مثل الرجل بين يدى فلان مثولا بمعنى قام بين يديه منتصبا

* مثل: زال عن موضعه
* ومثل فلان فلانا: صار مثله يسُدُّ مسدّه
* مثل فلان بين يدى الوالى مثولا: قام منتصبا
* أمثل فلانا: جعله مثله
* ماثل الشيء: شابهه ويقال: ماثل فلان بفلان: شبهه به ولا تكون المماثلة إلا بين المتفقين.

* مثل: مثل الشيء بالشيء تمثيلا: شبهه به وقدره على قدره
* مثل المسرحية: عرضها على المسرح عرضا يمثل الواقع للعظة والعبرة
* إمتثل أمره: أطاعه واحتذاه وامتثل المثل: تصوره وامتثل من فلان: اقتص منه
* تماثل الشيئان: تشابها وتماثل العليل من علته: قارب البرء فصار أشبه بالصحيح
* تمثل الشيء: تصور مثاله وفى التنزيل العزيز «فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا»
* الأمثل: تفضيل من مثل وهؤلاء أماثل القوم: خيارهم
* التمثال: مانحت من حجر أو صنع من نحاس ونحوه يحاكى به خلق من الطبيعة
* التمثيل فى علم النبات: عملية حيوية يجريها النبات الأخضر مكونا غذاءه
* التمثيلية: عمل فنى منثور أو منظوم يؤلف على قواعد خاصة قصدا للعبرة
* المثال: القالب الذى يقدر على مثله
* المثالى: وصف لكل ما هو كامل فى بابه كالخلق المثالى واللوحة المثالية
* المثال: صانع التماثيل
* المثل: الشبه والنظير
* المَثَلُ: المِثْلُ والمثل جملة من القول مقتطعة من كلام أو مرسلة بذاتها تنقل ممن وردت فيه إلى مشابهه بدون تغيير مثل «الصيف ضيعت اللبن»، «الرائد لا يكذب أهله»
* المَثَلَ: الأسطورة على لسان حيوان أو جماد كأمثال كليلة ودمنة (ج) أمثال
* المَثُلَة: العقوبة والتنكيل
* المثيل: المِثْل: (ج) أمْثالُ والمثيل: الفاضل
* الممثل: من يزاول مهنة التمثيل على المسرح»

ولا شك أن هذه الإشتقاقات تقدم لنا أبعادا فكرية تحتاج إلى صفحات طويلة للتعليق عليها ولكننا نتوقف عند تلك الإشتقاقات التى دخلت كمصطلحات ضمن الوسائل الحضارية الحديثة حتى أنها أصبحت عنوانا على هذه الوسائل فيقال مثل الشيء بالشيء تمثيلا وتمثالا ومثل المسرحية بمعنى عرضها على المسرح عرضا يمثل الواقع للعظة والعبرة، والتمثيلية عمل فنى منثورا ومنظوم، والممثل وهو من يزاول مهنة التمثيل على المسرح، ولا شك أن دور المسرح والسينما والتمثيل فى إيقاع المعاصرة لا يحتاج إلى توضيح حيث تلعب هذه الوسائل الحضارية أهم الأدوار فى حياة البشر على اختلاف أوطانهم.

ومن ناحية أخرى فإن كلمة مثل: بفتح الميم والثاء وإنما تعبر عن قيمة مجردة أو نموذج أو قناعة فكرية يطلب أحدهما ـ وهو المرسل ـ من المستمع ـ وهو المستقبل ـ أن يقتدى به وهنا يأخذ صفة العمومية، وكلنا يعرف دور الإعلان فى حياة الناس المعاصرة ـ على وجه الخصوص ـ وتلك الشعارات السياسية التى يعلنها الحاكم فى كل الاوقات لجذب الجماهير وهذه الشعارات عبارة عن نماذج وأمثال.

ولدينا ثانيا كلمة مُثُلُ: بضم الميم والثاء وتعنى أن هناك نماذج عامة أو قيم كبرى هى التى تقود مسيرة الجماعة نحو التقدم وخير مثال على ذلك تلك المثل التى تقدمها الديانات الكبرى والاتجاهات العالمية وتقول الأية القرآنية «**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**» «الأحزاب/ ٢١».

ولدينا ثالثا المِثْل: بكسر الميم وسكون الثاء فتقال كتحصيل حاصل أو تقال على سبيل الوصف لما هو قائم وموجود يقصد التصنيف أو تجميع المتشابهات وتقريب المعلومات وضمها فى كتل ووحدات فكرية أو مادية لصالح الجماعة.

وبناء على هذا فإن هذه الكلمة ربما كانت من أهم الكلمات التى تدخل مباشرة فى التأثير على حياة البشر وسلوكياتهم، وإذا قلنا أن حياة البشر تقوم على الأزدواجية الروحية أى الصراع بين الخير والشر فإن المثل ـ القدوة ـ يمثل نموذج الخير فى حياة الإنسان ذلك أن النموذج الذى يجب الإقتداء به هو العنصر الأساسى فى بناء الحضارة الإنسانية.

✍ الأمثال فى القرآن الكريم

يبلغ عدد كلمة «مثل» ومشتقاتها فى القرآن أثنتان وعشرون كلمة هى: تمثل، أمثلهم، مثْل، مثلكم، مثلنا، مثله، مثلها، مثلهم، مثلهن، مثليها، مثليهم، مَثَلَ، مثلٌ، مثله، مثلهم، الأمثال، أمثالكم، أمثالها، أمثالهم، المُثلات، المُثلى، التماثيل

وتقع هذه الكلمات فى ١٦٩ آية[١] وفى هذه السطور لا تستطيع متابعة هذه الكمات فهى تحتاج إلى دراسة مستقلة ولكننا نتوقف عند كلمة «الأمثال» ونحاول أن نكشف من خلالها الدور الوظيفى كما تشير إليه الآيات، فقد وجدنا كلمة أمثال فى الآيات التالية:

١- ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ [الرعد/ ١٧]

٢- ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم/ ٢٥]

٣- ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم/ ٤٥]

٤- ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل / ٧٤]

٥- ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾[الإسراء/ ٤٨]

٦- ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور / ٣٥]

٧- ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ [الفرقان/ ٩]

٨- ﴿وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً﴾ [الفرقان/ ٣٩]

٩- ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت/ ٤٣]

١- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم/ محمد فؤاد عبد الباقى/ طبع ١٩٨٧م- دار الريان للتراث.

١٠- ﴿وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة/ ٢٣]

١١- ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر/ ٢١]

ونحاول الوقوف على بعض المعانى التى تشير إليها بعض الآيات السابقة، فقد جاء فى كتاب/ صفوة التفاسير/ محمد على الصابونى تعليقا على الآية السادسة [سورة النور/ ٣٥] فيقول: والتفسير أى يبين لهم الأمثال تقريبا لأفهامهم ليعتبروا ويتعظوا بما فيها من الأسرار والحكم «والله بكل شىء عليم» أى هو سبحانه واسع العلم لا يخفى عليه شىء من أمر الخلق وفيه وعد ووعيد، واضيف من جانبى إلى تفسير الصابونى فأقول: إن الحياة فى أحوالها عامضة على إدارك الإنسان المحدود ولذلك يضرب الله الأمثال لكشف هذا الغموض وبما يتفق مع إدراكهم المحدود وهى أمثال قريبة من افهامهم.

أما الآية الحادية عشر [الحشر/ ٢١] فى هذه المجموعة فهى تمثل إحدى الأساليب القرآنية لتقريب الحدث إلى الأفهام وهو أسلوب تربوى تعليمى لتقويم المعوج وتوجيه السلوك إلى العمل الصالح والإبتعاد عن الضار و«لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» فى الآية السابقة إنما يعنى العظة والعبرة

وقد بلغ من أهمية المثل فى القرآن ما قاله أحدهم نظما:

ألا إنما القرآن تسعة أحرف ... سأنبيكها فى بيت شعر بلامل

حلال، حرام، محكم، متشابه ... بشير، نذير، قصة، عظة، مثل

وقد ورد فى تفسير ابن جرير الطبرى فى كلامه عن لغة القرآن قال ما ملخصه: إن قوما من العلماء ذهبوا إلى أن الأحرف السبعة هى معان جملتها:

٢-صفوة التفاسير/ محمد على الصابونى/ سوره هود/ طبع الرشيد/ حلب- سوريا.

الأمر والنهى ـ والوعد والوعيد ـ والجدل ـ والقصص ـ والمثل.

وهذا ما حواه القرآن وهذه الأحرف التى أنزل عليها القرآن تتنوع فى اللفظ وتتباين فى لهجاتها وألسنتها لكن لا تناقض ولا تعارض ولا تضاد فى الفاظها[1]

ومعنى ذلك أن المثل يدخل فى صلب الفكر الإسلامى وهو ما يحتاج إلى دراسة مستقلة

الأمثال فى التاريخ

لقد أشرنا فى السابق إلى ما قاله الميدانى فى مقدمة كتابه/ مجمع الأمثال/ ونضيف إليه تفسيرا آخر ربما يلقى ضوءا ويوسع الرؤية فيقول ابن الأنبارى فى كتابه «الزاهر فى معانى كلمات الناس» «فى مقدمة مخطوطة لاللى». . . ويكون المسبِّح «يسبح بالله» عارفا بما يعظم به سيده ومنبع ذلك تبيين ما تستعمله العوام فى أمثالها ومحاوراتها من كلام العرب وهى غير عالمة بتأويله»[2].

وإذا كان العلماء العرب قد قالوا بأن القرآن يتكون من سبعة معان منها «المثل» فإن أفلاطون قد نادى بأن «خير الطبيعتين وأقدسهما تتركب من ثلاثة أجزاء هى:

المدرك (العقلى) والمادى وما يتكون منهما وهو ما يسميه الإغريق بالكون ولقد أعتاد أفلاطون أن يسمى المدرك (العقلى) المثل أو النماذج أو الوالد، والمادى الوالدة أو المربية أو مقر الخلق ومحله وما ينتج منهما كليهما بالنتاج والخليقة»[3]. بمعنى أن المثل وهو المدرك العقلى كما يسميه أفلاطون هو إحدى المكونات الثلاثة للكون «والمثل هنا هو النموذج أو الضلع القائم فى مثل وهو الذكر وقاعدة المثلث بالانثى والوتر بنتاج الاثنين ويعتبر أوزيريس (الأصل) وايزيس المتقبلة وهورس النتاج الكامل»[3].

١- جريدة الوفد ٧/ ١٢/ ٢٠٠٠ مقال بقلم الشيخ أحمد شعبان بعنوان كيف نزل القرآن الكريم على سبعة أحرف؟

٢- ابن الأنبارى: أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن الأنبارى ت ٣٢٨هـ ص١٧٨. وهذا نقلا عن كتاب: الأمثال العربية القديمة/ رودلف زلهايم/ ترجمة/ دكتور/ رمضان عبد التواب/ طبع بيروت ١٩٨٢م ص ٤٤.

٣- إيزيس واوزيريس/ ترجمها عن اليونانية د/ حسن صبحى بكرى/ طبع سلسلة الالف كتاب الأولى رقم ٢٣٥ طبع ١٩٥٨م ص٨٥، ٨٦.

ومن ناحية أخرى فقد عد المصريون القدماء المثل ضمن الأدب التعليمى والتأملى، وقد برز المصريون فيه وكان هذا اللون محببا إلى الزوق المصرى. ويرى دكتور سليم حسن أن «مؤلف» فتاح حتب فى الحكم والأمثال كان نواه لظهور أمثال سليمان وحكمه، يؤيد ذلك ما أشهر به المصريون وتحدث به العالم القديم عن براعتهم فى الحكمة وضرب المثل، وقد فصلنا ذلك ـ يقول دكتور سليم حسن ـ عندما وازنا بين أمثال سليمان وتعاليم «أمنموبى» فى باب الحكم والأمثال ووصلنا إلى أن الأولى قد أخذت من الثانية قطعا بأكملها»[1] ولعل أبرز ما فى ذلك يمكن إيجازها فى نقاط ثلاث هى:

١- الأمثال ضمن الأدب التعليمى والتأملى.

٢- كانت هذه النصوص الموجزة محببة إلى الذوق المصرى.

٣- هذه الأمثال المصرية كانت نواه لظهور أمثال سليمان وحكمه وخاصة تعاليم «أمنموبى»

وفى هذا المجال فإننا نستطيع أن نرصد شواهد تاريخية عديدة فى الأمثال الشعبية المصرية ونكتفى فى هذه السطور بإشارات سريعة إضافة إلى إشارات سابقة. فنحن نقول فى أمثالنا: «السلف تلف» ونقول أيضا «الدراهم مراهم» فهذان المثلان بنصهما فى/ مجمع الأمثال/ للميدانى وقد أشرنا فى سطور سابقة إلى نصوص فرعونية مازالت تنتشر بين جميع الناس.

أما المثل الذى يقول: «ياكلها التمساح ولا يأخذها الفلاح» فإننا لا نستطيع أن ندرك أبعاد أو نفسر مراميه إلا من خلال بعض الظروف التاريخية، فقد كان العربان يحتقرون الفلاحة وحراثة الأرض وكانت كلمة فلاح عندهم مرادفة لألفاظ السباب فهى تعنى «رجل الطين الذى خلق من أجل الشقاء والذى ولد خصيصا لإنتاج طعام العربان، والمثل بذلك يوضح كراهية البدو للفلاحين، وقد شمل مبدأ عدم تزويج بناتهم من فلاحين جميع القبائل الموجودة بمصر شمالا وجنوبا»[2].

١- الأدب المصرى القديم أو أدب الفراعنة فى القصص والحكم والتأملات والرسائل/ دكتور سليم حسن/ طبع كتاب اليوم/ العدد ٢ ديسمبر ١٩٩٠ صـ١٣.

٢- العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر/ دكتورة إيمان محمد عبد العظيم- سلسلة تاريخ المصريين رقم /٩٧ طبع ١٩٩٧ صـ ١٦٣، ١٦٤.

ويمكن القياس على ذلك من المثل» «آخر خدمة الغز علقة» والغز هم الأتراك الذين حكموا مصر حتى الربع الأول من القرن العشرين وكذلك المثل الذى يقول «زى التركى اللى يقول لك سيب ده وأشرب من ده» وهو ذلك التركى المتسلط الذى كان يقف بجانب السبيل العمومى ليطلب من أحدهم أن يترك هذا الزير ويشرب من الزير الآخر بجانبه لا لشىء إلا تحقيقا لنزعة التسلط الغبى. وهى تعكس رؤية المصرى للاجنبى الدخيل الذى ساعدته الظروف على التواجد فى مصر رغم أنه غبى وغير متحضر.

المثل والتعبيرات الشعبية

تمتاز التعبيرات الشعبية بالرهافة ورقة الشعور واللطاقة حيث يمكن ملاحظة التعبيرات التى تسير بين الناس طوال ساعات النهار ومنها:

من فضلك ـ فضلة خيرك ـ شكرا ـ لو سمحت ـ عن إذنك ـ عاجز عن الشكر ـ تصحبوا على خير ـ إتمسوا بالخير ـ صباح نادى ـ صباح الفل على الناس الفل ـ مية مسا على الناس الكويسة.. إلخ.

وهذه اللغة تمتاز بالمرونة وهى أساس التعامل اليومى وهو ما يساعد على سرعة إنجاز الأعمال، وهى يخضع لمؤثرات معروفه هى: الزمان والمكان ، المرسل، المستقبل، ولذلك فإنها ترتبط بهده الظروف ومن ثم فإنه يجب أن توضع هذه الظروف فى الإعتبار عند محاولة التفسير.

فعلى سبيل المثال نجد التعبير: ايش جاب لجاب؟ فهذا التعبير يتكون من كلمتين أحدهما مكررة وهى كلمة «جاب» ولكنها فى هذا التعبير تحمل معنيين متناقضين تماما، فقد يقوله أحدهم استصغارا لشأنه أمام آخر ذو سطوة أو قوة مادية أو إجتماعية، وقد يقول ذلك أحدهم للتعبير عن الإعتداد بالنفس أو التباهى، وقد يحمل النص معنى ثالث وهو لتفضيل عمل على آخر. فكلمة «جاب» الأولى عكس الثانية. ومن ثم فهناك الكلمة التى تؤدى المعنى وضده وهو ما يشير إلى حرية التعبير الشفوى. وكذلك الحال بالنسبة للمثل «أنت فين وأنا فين» فكلمتى «فين ـ فين» مثل كلمتى «جاب ـ جاب».

ولذلك فإن اللغة الشفوية تحاول استغلال هذه الشفوية للوصول إلى المطلوب من أقرب الطرق فإذا انتقلت إلى الكتابة فإنها تحتاج إلى معرفة ظروف المرسل والمستقبل والمكان والمناخ الإجتماعى [ريف ـ حضر ـ حرف ـ معاملات. . . إلخ].

ومن جانبى فعندما أتحدث عن المثل لا أقصد التركيبة الأسلوبية التى يطلق عليها مصطلح «مثل» وهو أقرب إلى تكامل الحكمة أو لب الفلسفة الفكرية السائرة بين الناس على كافة المستويات ولكنى أعنى ـ كما يقول الميدانى ـ تلك الأقوال السائرة أحيانا ولذلك فإن هذه الموسوعة هى عبارة عن أمثال شعبية تمثل أكثر من ٩٠٪ أما الباقى فهى تعبيرات سائرة مثلها كالمثل فى الإنتشار والجماهيرية وأيضا فى القيام بالدور الوظيفى كما أن هذه التعبيرات فى كثير من الأحوال مكتملة المعنى وإن كانت فى بعض الأحيان تحتاج إلى إستكمال أسلوبى.

ومن ذلك الأمثال التى تبدأ بكلمه «زى» حيث نجد أن النص يحتوى على المشبه به إما المشبه فلا وجود له ومع ذلك فيمكن للمستمع إستنتاج المشبه من خلال مفهوم المشبه به والسياق العام للحوار وهو ما يعفى التعبير الشعبى من ضرورة الإكتمال اللغوى.

والمعروف أن المثل يتخلل الحديث الذى يدور حيث يتدمج التعبير الشعبى السائر مع الحوار بحيث يصبح جزءا منه يضيف إليه ويأخذ منه، ولذلك فأعتقد أن التعبير الشعبى هو جزء هام من النصوص المثلية وأن هذا التعبير هو شكل من أشكال التعبير المثلى لا يمكن عزله أو التفرقة بينه وبين الشكل المثلى التقليدى أو المجرد.

ففى / مجمع الأمثال / للميدانى يمكن إلتقاط بعض الكلمات التى أدخلها الميدانى فى الأمثال. من ذلك كلمة «جمالك» وقد علق عليها بقوله: أى إلزم ما يورثك الجمال، يعنى أجمل ولا تفعل ما يشينك»[1] وهو بذلك يؤكد ما ذكره فى المقدمة من أن الأمثال كالأنفاس للإنسان ومن ثم فقد أدخل الميدانى كل التعبيرات

١- مجمع الأمثال/ الميدانى/ منشورات مكتبه الحياة ـ بيروت/ لبنان ـ طبع ١٩٨٥ ـ المجلد الأول صـ ٢٤٣.

السائرة ضمن الأمثال وهو ما يخالف نظرتى التى ذكرتها فى مقدمة الجزء الأول وقد أيدها الدكتور أحمد مرسى فى كتابه «من مأثوراتنا الشعبية» الذى صدر فى مكتبه الأسرة ١٩٩٨[١] بقوله:

إن المثل الشعبى مثله فى ذلك مثل كل أنواع المأثورات الشعبية يمكن أن تكون له نصوص متعددة تؤدى المعنى نفسه وتحقق الغرض نفسه. ويوجد إلى جانب الأشكال التى ذكرت للمثل أشكال أخرى تختلف قليلا فى صياغتها وتعبيرها عن الصورة العامة للمثل وهى ما يمكن تسميتها بالمقارنات التى تأخذ شكل المثل أو الجمل المأثورة. والعبارات التى تقال استثارة للفكاهة والسخرية من مثل «زى التركى المرفود يصلى على ما يستخدم»، «زى ابن النصارى يقول يا تعدلونى يا أسلم»، «كل واحد وشطارته»، «لا تمشى مع الأقرع ولا تضرب معاه سؤال لو كان الأقرع يتماشى ما كانش شعر راسه طار» ، «كل تأخيرة وفيها خيرة».

ومن الواضح أن هذه الشواهد قد صنعت وفق خط الأمثال الشعبية وانتشرت بين الناس وحازت قبولهم لما فيها من روح قريبة من روح المثل الشعبى. . . . وأن البعض الآخر أصبح جملا مأثورة أو تقليدية تستعمل فى بعض المواقف المتكررة الحدوث دون أن تعبر عن حكم أخلاقى أو تكون حصيلة تجربة أو تلخيصا لخبرة»

ومن جانبى أضيف إن نصوص الأمثال حصيلة ممارسة يومية. ولا شك أن الصعوبة التى تتكرر دائما هى أنه من العسير إكتشاف مثل هذه الأشكال التى يعتبرونها أمثالا ذلك أن إستمرارها وتدولها وظهور أشكال جديدة يزيد من الأمر صعوبة ولا فرق هنا بين النص الذى يطلق عليه «مثل» أو ذلك النص الذى يطلق عيه تعبير شعبى ومن ثم فإننى أعتقد أنه لا فرق بين التعبير الشعبى والنص المثلى وإذا كان هناك أختلاف فهو اختلاف نظرى يشيع بين المثقفين ولا يدرك رجل الشارع هذا الإختلاف النظرى بل أن العلماء حتى الآن لم يتفقوا على تعريف محدد للنص المثلى.

١- من المأثورات الشعبية/ دكتور أحمد على مرسى/ مكتبة الأسرة ١٩٩٨ صـ٧٧،٧٨،٧٩.

وفى هذا لامجال أنقل رؤية حديثه حول تعريف المثل. فقد جاء فى مجلة الفنون الشعبية العدد ٥٣/ أكتوبر/ديسمبر١٩٩٦ فى مثال مترجم حول بنية المثل تأليف آلان دندس وترجمة دكتور خطرى عرابى قوله: وقد استهل أرثر تايلور كتابه الشائق عن الأمثال بهذه العبارة «أن تعريف المثل صعب التحديد أو التفسير وذلك للأراء المتضاربة للناس فى أدعاء أن جملة «ما» بمثابة مثل بينما يدعى آخرون أن هذه الجملة ليست بمثل على الإطلاق، وعلى ذلك ليس هناك أى تفسير يسمح لنا بتحديد ما إذا كانت الجملة تعد مثلا أم لا و حين سئل آرثر عن هذه العبارة المتشائمة لاحظ تايلور حينئذ أن كتابه بجملته يمثل تعريفا للمثل، وقد قال ب.ج وينج وهو دارس أولى للمثل أنه من المستحيل الإدلاء بتفسير موجز للمثل خاصة إذا كان هذا المثل متضمنا فى عبارة، وعلاوة على ذلك ذهب إلى القول بأن تعريف الأمثال لسنا بحاجة إليه. ولحسن الحظ فليس فى الواقع تعريف ضرورى أو لازم بما أن كلا منا يعلم فحوى أو معنى أو مغزى المثل» أنتهى.

وهكذا لا نستطيع أن نقف على تعريف واضح للمثل من خلال هذه الإجتهادات السابقة وتعليقا على ذلك نقول إن الأمثال عبارة عن جمل متنوعة ومتناقصة ومتباينة فى أفكارها وأهدافها وذلك إذا نظرنا إليها كجمل منفردة، وهى بذلك عبارة عن رؤية فردية فى مكان معين وزمان معين وتأتى عفو الخاطر ولكنها ـ نصوص الأمثال ـ بعد تجميعها وتصنيفها فإنها تعبر عن إتجاه ثقافى وتكشف الخلفيات أو المخزونات الثقافية والمتوارثة ومن خلال هذه المخزونات تأتى الأمثال وتؤثر على حركة الجميع.

ومن ناحية أخرى فإن النص المثلى لا يعنى أنه عبارة عن حالة جامدة ومتحجرة ولكنه كائن حى ينمو ويتطور وقد يتلاشى فى زحمة إيقاع الحياة المتغيرة.

وينقلنا ذلك إلى فلسفة النص التالى:

ومما لا شك فيه أن حياة الإنسان اليومية والعامة مع حركة المجتمع مليئة

بالتجارب والشخص الذكى هو من يحول هذه التجارب بعد التفكير فى سلبياتها وإيجابياتها ويصوغها حكما وأمثالا تنفع الآخرين الذين يتفاعلون مع ما يقول.

أما المستقبلون لهذه الحكم والصياغات فينقسمون:

أحدهم يضرب صفحا عن هذه الحكمة لأنها لا تتفق مع ظروفه وتجاربه أو أنها تعارض تجاربه وتوجهاته الثقافية.

الثانى: يستمع إلى هذه الصاغات ويتفهم الفلسفة الكامنة ويفيد منها فى مواجه إيقاع حياته.

والثالث: وهم العلماء والمثقفون الذين ينظرون إلى هذه النصوص من حيث دلالاتها على القيم والعادات والتقاليد التى يتحرك من خلالها المجتمع بكل طوائفه ومن خلال هذا يمكن توظيف هذه النصوص فى الإتجاهات التى تتفق مع التوجيهات السياسية أو الإجتماعية

على أن ثقافة النصوص المثلية وهى تعبر عن خبرة وتجارب الآباء والأجداد لا يمكن أن تعيش فى إيقاع الحاضر دون حاجة إليها فهذه النصوص ليست مفروضة على الواقع المعاش ولكنها تأتى للحاجة فهى إذن تمثل همزة وصل بين الماضى والحاضر وتمثل الإستمرارية والتواصل التى تحفظ كيان البنيان الإجتماعى وتحميه فى مواجهه الذوبان فى التيارات الفكرية الوافدة أو الهوجائية أو المفاجئة.

ومن ناحية ثانية فإن عدد كلمات هذه الموسوعة والتى لا تزيد على ٥٥ ألف كلمة تقريبا[1] قد استوعت كل ما يدور فى المجتمع من عادات وتقاليد ونشاطات يومية فى جانبيها الروحى والمادى حتى إننا يمكن أن نقول أن الشخصية المصرية قد ظهرت أمامنا بوضوح ودون زيف، ولذلك فقد أعتبرها الباحثون من أهم المداخل لدراسة الشخصية وخاصة الشخصية المصرية ذات الجذور التاريخية والإرتباط المكانى والنزعة التقليدية وتتفاعل دوما مع الحاضر بكل تطوراته.

١- تم إجراء إحصاء كلمات ستمائه مثل فكانت ٣٨٠، ٣٩٠، ٣٣٦، ٣٥٢، ٣٧٠، ٣٨٧ أى كل مائة مثل تتكون من ٣٦٨ كلمة وتكون ٣٦٨ × ١٥ الف مثل= ٥٥,٢٠٠ تقريباً.

وفى هذا المجال يلحظ القارئ تكرار بعض الأمثال وهو أمر نادر ولا يتعدى العشرات فى هذه الموسوعة التى تصل إلى ١٥ ألف نص وذلك التكرار قد يكون الزيادة الشرح والإضافة أو لتسجيل حكاية أو نادرة مرتبطة بالنص أو تربط النص بمكان معين أو زمان محدد.

فعلى سبيل المثال نجد المثل الذى يقول:

لما قالوا: دا ولد انشد ضهر أمه وانسند ولما قالوا: دابنيه انهدت الحيطة على. فقد سجلته فى الجزء السادس وذكرت معه أن د/ميرفت العشماوى ذكرت هذا المثل فى بحث لها عن قرية عزبة البرج بجوار رشيد وتعلق على المثل بقولها إن هذه الأفكار مقررة فى هذه المنطقة وقد ذكرت هذا المثل فى المؤتمر الذى عقد عن بيرم تونس والشعر العامى فى ١٩٩٦/٣/٢٣. وتوجد صياغة أخرى لهذا المثل تقول:

لما قالوا: دا ولد انشد ظهرى وانسند ولما قالوا: دا بنيه قلت دى الحبيبة جاية.

وقد ذكرت فى جـ٦ المثل الذى كررته فى جزء سابق والمثل يقول:

«الخاله والدة» واضفت إليه معلومات جديدة واوردت فقرة من كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالى/ طبع دار الغد العربى جـ٢ / ٣١٣ فى قصة ابنة حمزة وقوله: لما اختصم فيها على بن أبى طالب وأخوه جعفر وزيد بن حارثة رضى الله عنهم فتشاحنوا فى تربيتها فقال الرسول (ص) لعلى: أنت منى وأنا منك «تخجل على» وقال جعفر: «اشبهت خلقى وخُلقى» فخجل وراء خجل على، وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا» فخجل زيد وراء خجل جعفر ثم قال عليه الصلاة والسلام: «وهى لجعفر لأن خالتها تحته والخالة والدة».

وقد أعدت تكرار تسجيل المثل: «رجعت ريمة لعادتها القديمة» وأضفت ما يقوله الجبرتى [فى الجزء الرابع صـ٣٨١- طبع دار الأنوار المحمدية] عن أن ريمة بلدة ناحية حماة فى سوريا، ويقول الجبرتى عن فرار الأمراء «وارتحل منها إلى بلدة يعمل بها البارود ومنها إلى بلدة «ريمة» ونزل عند سعيد أغا» وكما يقول المثل فإن ريمة كانت تشتهر بعادة غير مستحبة ثم أقلعت عنها.

وقدتكرر المثل «اللى اختشوا ماتوا» واوردت معه حكاية قرأتها فى بريد الأهرام وهى منقوله عن الكتب القديمة.

وقد أعدت تسجيل المثل «القرش الأبيض ينفع فى اليوم الإسود» حيث وجدت أن له أصول تاريخية فيقول المثل العربى: «أدخر المال الأبيض للأيام السوداء» وقد ذكره كتاب: أمثال الأمم الأوربية»/ سلوين جرنى شامبيون وترجمة محمد رضا/ طبع ١٩٤٧م.

وأعدت تسجيل المثل: «أطعم الفم تستحى العين» الإضافة ما جاء فى كتاب «فجر الضمير/ جيمس هنرى بريستد وترجمة/ دكتور سليم حسن. فقد ذكر النص الفرعونى أن الرجل الغنى فى بيته لا يتحيز أما الرجل الذى يقول: ليت لى لن يكون محايدا بل ينحاز إلى الشخص الذى يحمل العطية».

وهناك ملاحظه يجب الإشارة إليها وهى أن بعض الإسماء التى جاء ذكرها فى الأجزاء الأولى قد انتقلت إلى رحمة الله ولم أغير ما سجلته على أعتبار أن هذه النصوص قد سجلت فى تواريخ سابقة وهذه النصوص التى تحتويها هذه الموسوعة حتى الجزء السادس قد استغرقت حوالى عشرين عاما حيث تم تسجيل الجزء الأول فى الفترة من ١٩٦٥ إلى ١٩٦٩ والأجزاء من الثانى حتى السادس فى الفترة من ١٩٨٧ حتى عام ٢٠٠١ وهى فترة حدثت فيها تغييرات كثيرة على المستوى الفردى والإجتماعى سياسيا و إقتصاديا وثقافيا حتى أن هناك أمثالا سجلتها فى حينها ولم تعد شائعة ومن ثم فقد دخلت ضمن النصوص التاريخية ذات الدلالة الاجتماعية والإقتصادية، فالمثل الذى يقول: «إن فضل العيش يبقى المش بشرقة» وهو يعبر عن شدة الفقر التى كان يعانى منه الناس حتي أربعينات القرن العشرين حتى أن اللقمة المغموسة فى المش تمثل رفاهية وأمنية، وأيضا المثل الذى يقول «زى التركى اللى يقول: أخر خدمة الغز علقة» فمن الذى يعرف الغز الآن؟

والغز هم الأتراك الذين دخلوا الحياة المصرية وتواصلت سطوتهم حتى بدايات القرن العشرين وأندمجوا فى المجتمع وذابوا ومازالت أسر كثيرة تحمل هذه الملامح وأصبحت أسر مصرية، وأيضا المثل الذى يقول «زى التركى اللى يقول: سيب دى وأشرب من دى» وكان هذا التركى يقف إلى جوار ازيار السبيل ويريد أن يفرض تسلطه ويتحكم فى المارة الذين يشربون من ازيار السبيل أو القلل المعلقة بجوارها.

إن هذه النصوص هى كل ما أستطعت أن جمعها خلال هذه الفترة وبإمكاناتى المحدودة وهى ـ بلاشك ـ تلقى ضودا على هذا الباب المفتوح ويتمثل فى صياغات لا آخرلها تتوالد بشكل متواصل ولا تتوقف، وإذ كنا قد تيسرلنا جمع هذا العدد فى هذه الفترة المحدودة أى فى الثلث الأخير من القرن العشرين ومن مكان محدد وهو مثلث الوجه البحرى الذى ينتهى بالقاهرة وبجهد فردى فكيف يكون الحال لو انتشرت مجموعات من الباحثين الجامعين فى أنحاء البلاد شمالا وجنوبا حيث المخزون الشفوى الملئ بالثراء والذى لم يتأثر بعد بالمؤثرات الخارجية؟.

إن هذه النصوص هى المدخل الاكثر أهمية فى دراسة الشخصية المصرية بابعادها الظاهرة والخفية فى فترة زمنية محدودة فماذا يقول قارئ هذه النصوص بعد ألف عام مثلا؟

ومن ناحية أخرى فإن الوقوف أمام الصياغات اللغوية والتركيبات الأسلوبية فى هذه النصوص يمكن أن يساعد فى الوقوف علي تطور الصياغات وارتباطها بالزمان والمكان وايقاع الحياة الإجتماعية.

كما أن التفسيرات المصاحبة لهذه النصوص قد تكون مجرد انطباعات واجتهادات إلا أنها مزودة بالمصادر والمراجع والتحقيقات من داخل التيارات المصاحبة للعلاقات اليومية، وهذه التفسيرات لا تتوقف فى بعض الأحيان عند تفسير واحد ولكنها قد تقدم عدة تفسيرات للنص الواحد وهى كلها صحيحة رغم ما قد يبدو فيها من تناقضات مثال ذلك «السجن للجدعان» فكل هذه التفسيرات ترتبط بالزمان والمكان والموقف والظروف المحيطة بالقائل المستمع.

* * * * *

وفى عصر شيوع مصطلح «العولمة» التى يحاول العالم الغربى فرضه على العالم كتعبير عن الهيمنة اللغوية والفكرية والتى تدعم الهيمنة السياسية والإقتصادية بقصد إلغاء الخصوصيات الثقافية والحضارية للشعوب وإحلال عادات وتقاليد مادية تخدم أهدافه وتوجهاته، فى هذه الظروف فإننا أحوج ما نكون إلى المحافظة على هذه الهوية الثقافية والممثلة فى الأعراف والتقاليد والثقافة الشعبية وعلينا أن نسرع باقصى ما نستطيع فى جمع التراث الشعبى عنوان الهوية

والخصوصية والذى يحمينا من الذوبان والضياع ولا يعنى ذلك الجمود ولكن يعنى أن لدينا من ثقافتنا ما يمكن أن يحمينا.

ومن جانبى فقد استطعت ـ بعون الله وتفيقة ـ جمع هذا الكم من النصوص لكى يكون مادة أو مدخلا لدراسة الشخصية المصرية والوقوف على أبعادها الفكرية وإكتشاف ما هو كامن فيها من أسلحة فكرية لكى نواجه غزو ما يسمى بالعولمة بينما هو ـ فى إعتقادى ـ ضرب من تزييف العقول وتشويه المفاهيم واستلاب الهويات ومن ثم الدخول فى كهف العبودية والضياع والأحباط وفقدان الثقة بالنفس.

وأكرر أننى قد سجلت نسبة من التعبيرات الشعبية المنتشرة على اعتبار أنها تدخل فى المفاهيم المثلية، وقد لفت نظرى إلى ذلك/ الميدانى/ حيث سجل العديد من التعبيرات على أنها أمثال والأساس فى ذلك ـ كما يقول القدماء والمحدثين ـ أن هذه التعبيرات لها نفس شيوع النص المثلى وانتشاره فضلا عن الإمتداد الزمانى عبر الأجيال.

والسؤال المطروح هو أنه كيف تم جمع هذه الكمية من النصوص؟

وقد وجه الكثيرون لى هذا السؤال.

وجوابى على ذلك هو المعايشة ولا يصلح للقيام بهذا العمل إلا ابن البيئة وكلمة المعايشة تعنى مواصلة الإنتباه لهذه النصوص طوال اليوم حتى أنى كنت أعد ورقة وقلما لالتقاط كل ما يمكن أن يطرق سمعى.

وجامع هذه النصوص هو جزء من نسيج المجتمع وابن الريف ـ فى مدينه زفتى ـ فى قلب الوجه البحرى على فرع دمياط وتقع فى أكثف منطقة سكانية فى شمال مصر ـ ثم إنه عمل فى القاهرة منذ تخرجه من كلية الآداب قسم اللغة العربية عام ١٩٥٨ واستاذ الأدب الشعبى بجامعتى الجزائر وقسنطنية بجمهورية الجزائر فى الفترة من ١٩٧٦ - ١٩٨٧ إلى أن أجيل إلى المعاش ١٩٩٤ من رئاسة إتحاد الإذاعة والتلفزيون، واقترب كثيرا من كافة المستويات دون إستثناء، وعلى وعى ـ بقدر الإمكان ـ بكل يدور فى المجتمع من أوجه النشاط المادى والروحى

ويلتقط النصوص من سياقها الإجتماعى مباشرة ولديه وعى بالسبب والمحيط والمناخ الفكرى.

*****

وأخيرا فإن هناك عطش فكرى لدى المصريين لمعرفة المزيد من أمورهم وشخصيتهم الثقافية والإجتماعية واقصد بذلك الثقافة الشعبية. فلقد كنت أعتقد أن هناك قصورا كبيرا لدى المثقفين فى إدراك هذه الحقيقة ربما كنوع من الإستعلاء الفكرى أو عدم الوعى أو لا نشغالهم بالاهتمامات الثقافية المجردة والتى تدور بين النخبة إلى أن ظهرت مكتبة الإسرة التى كشفت عن أننى كنت واهما ذلك أن كتابى «العادات والتقاليد المصرية فى عهد محمد على/ المترجم ما أن قامت مكتبة الإسرة بطبعه عام ١٩٩٧ حتى نفذت كل الكمية المطبوعة فى اليوم الأول أو الأيام الأولى حتى إضطر المسئولون إلى إعادة طبعة فى نفس الدورة ١٩٩٧ ونفذت ـ أيضا ـ الكمية المعروضة فى الطبعة الثانية فور صدورها. وهو ما يشير إلى تعطش الناس إلى معرفة أفكار الآباء والأجداد وهو حق يجب أن يهتم به المسئولون عن الثقافة.

ولقد أنتبهت إلى هذه الحقيقة منذ أن صدر كتابى «الشعب المصرى فى أمثاله العامية» عام ١٩٧٢ وفوجئت بسرعة نفاذه بل طولب بإعادة طبعه على صفحات الجرائد فى ٢٤/ ٩/ ١٩٩٢ وذلك فى إعقاب تيار التطرف الذى هجم على المجتمع المصرى [أنظر بريد أهرام ٢٤/ ٩/ ١٩٩٢].

والغريب إن الاهتمام بهذا الكتاب لم يكن داخل مصر فحسب ولكنه كان اهتماما خارجيا أيضا ـ حيث مكتبه الكونجرس ـ والإتحاد السوفيتى سابقا. وفى إحدى المرات وبعد أن اختفى هذا الكتاب أخذت اتردد على مكتبة الأزبكية أحاول العثور على نسخة وبالفعل عثرت على نسخة معروضة فى مكتبه على سور الازبكية وسألت صاحبها ـ وكان مفتشا بوزارة التربية والتعليم ـ ويحاول زيادة دخله وسألته عن القارئ الذى يستهوية مثل هذا الكتاب؟ وكان رده العرب يهتمون بكل ما يتعلق بالدراسات المصرية.

والحقيقة أننى عندما وضعت عنوانا على أول مؤلفاتى وهو «الشعب المصرى فى أمثاله العامية «إنما كنت أعنى أن هذه النصوص تحمل أصدق الدلالات على طبيعة الشعب المصرى والشخصية المصرية وعلى طبيعة المكان الضيق والذى يستوعب ٦٨ مليون من البشر فى مساحة لا تتعدى ٣٠ ألف كيلو متر حتى أننى أدعى أن مصر من الإسكندريه إلى اسوان إنما هى مدينه واحدة.

وأخيرا فإننى أرجوا أن أكون وقد وفقت إلى خدمة بلدى ـ مصر العزيزة.

دكتور

إبراهيم أحمد شعلان

الأربعاء : ١٣ مارس ٢٠٠٢م

٢٩ ذى الحجة ١٤٢٢هـ

الساعة ٤٥ , ١٢ ظهراً